﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٩﴾ [الرّوم: 9]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد تقرير الدَّليل أتْبَعه بالتَّهديد والتَّهويل

لَمّا أقامَ اللّه تعالى عَلى الكافرين الدَّليلَ، أتْبَعَهُ التَّهْديدَ والتَّهْويلَ، فقالَ عاطِفًا عَلى ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ﴾: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَٰقِبَةُ﴾: (عقب) يَدُلُّ أصْل المادَّة عَلَى تَأْخيرِ شَيْءٍ وإتْيانِه بَعْدَ غَيْرِه، وعَلى ارْتِفاعٍ وشِدَّةٍ وصُعوبَةٍ[2]، وعَقِبُ كُلِّ شيءٍ، وعَقْبُه، وعاقِبتُه، وعاقِبُه، وعُقْبَتُه، وعُقْباه، وعُقْبانُه: آخِرُه، والعُقْبَى جَزاءُ الأمْر، والعُقْبى تكون في الخَيْر، أي العاقبةُ، وجَمْعُ العَقِبِ والعَقْبِ: أعقابٌ[3]، والعَقِبُ: الذي يَكِرُّ على الشيء ويتبعه لينظر ما فيه مِن الخَلَل ليُنْقِصَه[4]، والمعنى هُنا: مَصيرُهُم الَّذي انْتَهَوا إليه.

2) ﴿وَأَثَارُواْ﴾: أصلُ (ثَوَرَ) يدُلُّ على انبعاثِ الشَّيءِ[5]، الإثارة: تحريك الشَّيء حتَّى يرتفع تُرابه، عن قتادة، قوله: "إنّ من الرّيح عقيمًا وعذابًا، حين ترسل لا تلقح شيئًا، ومن الرّيح رحمة يثير اللّه ﷻ بها السّحاب، وينزل بها الغيث"[6]، ومن المجاز: أيضا: ثوّر

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 50.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عقب).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (عقب).
(4) السَّمين الحَلَبي، عُمْدة الحُفّاظ: (عقب).
(5) ابن قُتَيْبَة، غريب القرآن، ص: 340، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ثور)، وابن الهائم، التِّبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 333.
(6) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن: 21/ 539.

عليهم الشّرّ، إذا هيّجه وأظهره، وثارت بينهم فتنة وشرّ، وثار الدّم في وجهه.

وفي حديث عبد اللّه: (أثيروا القرآن، فإنّه فيه خبر الأوّلين والآخرين)[1]، والمراد هُنا: حَرَثوا وزَرَعوا.

3) ﴿وَعَمَرُوهَآ﴾: أصلُ (عمر) يدُلُّ على بقاءٍ وامتِدادِ زَمانٍ، وعَلَى شَيْءٍ يَعْلو، مِنْ صَوْتٍ أوْ غَيْرِهِ[2]، والعِمارةُ: نَقيضُ الخرابِ، يقال: عَمَرَ أرضَه: يَعْمُرُها عِمارَةً، والْعَمْرُ والْعُمُرُ: اسم لمدّة عمارة البدن بالحياة، فهو دون البقاء، فإذا قيل: طال عُمُرُهُ، فمعناه: عِمارَةُ بَدَنِه بِروحه، وإذا قيل: بقاؤه فليس يقتضي ذلك، فإنّ البَقاء ضدّ الفَناء، والتَّعْميرُ: إعطاء العُمْر بالفِعْل، أو بالقول على سبيل الدُّعاء، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ﴾ [فاطر: 37][3].

ومعنى الآية: أيْ وعَمَّرَها أولَئِكَ الَّذينَ كانوا قَبْلَهم بِفُنونِ العِماراتِ مِنَ الزِّراعَةِ والغَرْسِ والبِناءِ وغَيْرِها[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الدعوة للسّير الاعتباري في الأرض ومعرفة عاقبة الهالكين

أوَلَمْ يَسِرْ هؤلاء الجاحدون المشركون باللّه الغافلون عن الآخرة في الأرض، سَيْرَ تَأمُّلٍ واتِّعاظ، فيشاهدوا كيف كان مصير الأُمَم السّابقة، ومَصارع الَّذين كذَّبوا بِرسالات اللّه كعاد وثمود وقوم لوط؟ وقد كانوا أقوى منهم أجسادًا، وأكْثَرَ عِمارة للأرض، حيث حَرَثوها وزَرَعوها، وبنوا القُصور وسَكنوها، فعَمَّروا دُنياهم أكثر مِمّا عَمَّر أهْل مكَّة دنياهم، فلم تنفعهم عِمارتُهم، ولا طولُ مُدَّتهم، وجاءتهم رُسُلُهم بالحُجَج الظّاهرة، والبراهين السّاطعة، فكذَّبوهم فأهلكهم اللّه، ولم يظلمهم اللّه بذلك الإهلاك، وإنّما

(1) الزَّبيديّ، تاج العروس من جواهر القاموس: (ثور).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عمر).
(3) الرّاغب، المفردات: (عمر).
(4) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 25.

ظلموا أنفسهم، بإيرادها موارد الهَلاك بالشِّرْك والعِصْيان، والنُّفور والطُّغيان[1].

وترشدُ الآية الكريمةُ إلى أنَّ السَّير في الأرض فيه اعتبار بالجزاء المعجَّل في الدنيا، إذ هو نموذج للجزاء الأخروي ومبتدأ له، وإلى مشروعية السَّير في الأرض للاعتبار مع اشتراط عدم حصول إثم في ذلك؛ بترك واجب، أو بفعل مُحَرَّم[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

غرض الاستفهام في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ﴾:

الاستفهام في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، للتَّقرير المَشوب بالتَّوبيخ والتَّقريع؛ لِعَدَمِ تَفَكُّرِهم في الآثارِ، وتَأمُّلِهم لِمَواقِعِ الاعْتِبارِ[3]؛ وذلك بناء على أنَّ "الاستفهام إنكار للنَّفْي، وإثبات للمَنْفيِّ، أي قد ساروا في تِجارتهم، وفي أسفارهم، وفيه تشنيع لَهُم؛ لِعَدَم اتِّعاظهم، وعَدَم تَنَبُّههم بِما أصابهم مِثْل ما أصاب مَن قَبْلَهم غِبَّ توبيخ على عَدَم تفكيرهم في المصنوعات"[4]، والمعنى: (أَوَلَمْ يُسافروا في الأرض، فيَنْظروا إلَى مَصارِعِ الأُمَم قَبْلَهُم فيَعْتَبِروا؟!).

تـوبـيـخ المشركين؛ لِعَدم اعتبارهم بِما حَلَّ بأسلافهم الأوّلين

دلالة الواو على المحذوف في السّياق:

الواو في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ عاطفة عَلى مُقَدَّرٍ يَقْتَضيهِ المَقامُ، والمعنى: أنَّهم قَدْ ساروا وشاهدوا ماحاق بِمَنْ كانَ قَبْلَهم، مِن مُكَذِّبي الرُّسُلِ، والجملة معطوفة على جملة: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ﴾ عَطْف سَبَبٍ على مُسَبَّبٍ؛ لأنَّ السَّير سَبَب للتَّفَكُّر[5].

لِلقُلوب سَيْرٌ، وللنُّفوس سَيْرٌ، وكلاهما خلق الله العجيب

وأشار ابن عطيَّة إلى لطيفة بقوله: "ولا يَتوجَّهُ للكَفَرةِ أن يُعارِضَ

(1) نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 405.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 637، والجزائري، أيسر التفاسير: 4/ 163.
(3) الزَّمخشريّ، الكَشّاف: 4/ 566، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 159.
(4) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 15/ 107.
(5) الصّاويّ، حاشية على تفسير الجلالين: 3/ 229.

منهم مَن لم يَسِرْ، فيَقولَ: لم أسِرْ؛ لأنَّ كافَّةَ مَن سار مِنَ النّاسِ، قد نَقَلَت إلى مَن لم يَسِرْ؛ فاستَوَتِ المعرفةُ، وحصَل اليقينُ للكُلِّ، وقامت الحُجَّةُ، وهذا بيِّنٌ"[1]، وللنُّفوس والقلوب أيضًا سَيْرٌ، فسَيْر النُّفوس في أقطار الأرض ومَناكِبها لأداء العبادات، وسَيْر القلوب بِجَولان الفِكْر في جميع المخلوقات، وغايته الظّفر بحقائق العلوم الّتي توجِب ثَلْج الصّدر[2].

سِرُّ الفرق بين ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ﴾ و﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾:

لكلّ من السّير والرّؤية، مجال للاعتبار المنيف، والنّظر الحصيف

ورد قولُه تعالى في هذه الآية قيد التّفسير: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾ مغايرًا في الحثِّ مع قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ﴾ [العنكبوت: 19]، وقوله ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْۚ﴾ [العنكبوت: 67]، بلفْظِ (أَوَلَمْ يَرَوْا)، ولم يقُلْ فيهما: (أولمْ يَسيروا)؟.

عُبِّر بالرُّؤْية في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ﴾ [العنكبوت: 19]، وفي قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْۚ﴾ [العنكبوت: 67] بلفْظِ: (أَوَلَمْ يَرَوْا) وفي الأنعام: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ [الأنعام: 6] ولَمْ يَقُلْ: (أَوَلَمْ يَسيروا)؛ لاختلاف المقام، إذ لا حاجَةَ هُناك إلى السَّيْرِ بِحُضورِ النَّفْسِ والسَّماءِ والأرْضِ، وقالَ هاهُنا: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ﴾، ذَكَّرَهم بِحالِ أمْثالِهِمْ ووَبالِ أشْكالِهِمْ، ثُمَّ ذَكَرَ أنَّهم أوْلى بِالهَلاكِ؛ لِأنَّ مَن تَقَدَّمَ مِن عادٍ وثَمودَ، كانوا أشَدَّ مِنهم قوَّةً، ولَمْ تَنْفَعْهم قواهم، وكانوا أكْثَرَ مالًا وعِمارَةً، ولَمْ يَمْنَعْ عَنْهُمُ الهَلاكَ أمْوالُهم وحُصونُهم[3].

(1) ابن عطيَّة، المُحَرَّر الوَجيز: 4/ 330.
(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/ 110.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 101.

نكتةُ التعبير بالظَّرْفيَّة:

الأرض تَشْمَل الغلاف الجَوّيّ؛ لأنَّها بِدونه لا تَصْلُح للعَيْش

نجد لفظ السَّير في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الذي يعني قَطْع المسافات مِن مكان إلى مكان، والمراد به هنا انتقال الأُمَم السّابقة المُكَذِّبة، مِن مكان إقامتهم إلى أماكن الاعتبار والنَّظَر، والأرْضُ: اسْمٌ لِلْكُرَة الَّتي نعيش فيها، وكَشَفَ العُدول عن حَرْف الاستعلاء (على)، إلى حَرْف الظَّرْفيَّة ﴿فِي﴾ من قوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، عن دِقَّة البيان القرآنيّ وإعجازه؛ لأنَّ الأرض ليست مُجَرَّد اليابسة التّي تَحْمِل الماء والّتي نعيش عَلَيْها، إنَّما الأرض تَشْمَل كُلَّ ما يُحيط بها مِن الغلاف الجَوّي؛ لأنَّها بِدونه لا تَصْلُح للعَيْش عَلَيْها؛ إذًا فغلاف الأرض مِن الأرض؛ فنحن حين نَسير نَسير في الأرض ولا نَسير عليها[1].

معنى (أل) في لفظ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

سرّ الأرض فيما حملت من عبرة وعمران، على مرّ الزّمان

لا ريب أنّ سِرَّ تَعريف الأرض في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ كما يشير البقاعيّ: "ولَمّا أحاطَتْ آثارُ المُكَذِّبينَ بِمَكَّةَ المُشَرَّفَةِ شَرْقًا وغَرْبًا، وجَنوبًا وشَمالًا، بِديارِ ثَمودَ، وقَوْمِ فِرْعَوْنَ، وعادٍ وسَبَأٍ وقَوْمِ لوطٍ، عَرَّفَ وأطْلَقَ، فقالَ: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾، ومُشركو مَكَّة لَم يسيروا في أرض المُكَذِّبين المُهْلَكين، سَيْرَ اعْتِبارٍ وتَأمُّلٍ وادِّكارٍ، مِن أيِّ جِهَةٍ أرادوا، وفيهِ إشارَةٌ إلى أنَّهم واقِفونَ عِنْدَ النَّظَرِ في ظاهِرِ المُلْكِ بِأبْصارِهِمْ، قاصِرونَ عَنِ الاعْتِبارِ في باطِنِ المَلَكوتِ بِأفْكارِهِمْ، وفيهِ هَزٌّ لَهم إلى امْتِطاءِ هَذِهِ الدَّرَجَةِ العَلِيَّةِ، بِهَذِهِ العِبارَةِ الجَلِيَّةِ ﴿فَيَنظُرُواْ﴾"[2].

دلالة الزّجر والتّوبيخ، في السّياق المحكم:

تَضَمَّن قوله تعالى: ﴿فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾،

(1) الشَّعراويّ، تفسير الشعراوي: 18/ 11323.
(2) البِقاعيّ، نَظْم الدُّرَر: 15/ 50.

تلويحًا بالوعيد لهؤلاء المشركين، وتلميحًا بالتّهديد؛ لِتَكْذيبِهم الرَّسول ﷺ وتَضَمَّن أيضًا تَجْهيلًا لَهُم وتوبيخًا؛ لإحالَتِهم المُمْكِنَ، "حَيْثُ أيْقَنوا بِأنَّ الفُرْسَ لا يُغْلَبونَ بَعْدَ انْتِصارِهِمْ! فهَذِهِ آثارُ أُمَمٍ عَظيمَةٍ، كانَتْ سائِدَةً عَلى الأرْضِ، فزالَ مُلْكُهم، وخَلَتْ بِلادُهم مِن سَبَبِ تَغَلُّبِ أُمَمٍ أُخْرى عَلَيْهِمْ، والمَعْنى: أنَّهم كانوا مِن قَبْلِهِمْ في مِثْلِ حالَتِهِمْ مِنَ الشِّرْكِ وتَكْذيبِ الرُّسُلِ المُرْسَلينَ إلَيْهِمْ، كَما دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ عَقِبَهُ ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ ... الآيَةَ"[1].

بيان ملمح التّلويح بالوعيد، والتّلميح بالتّهديد

وجهُ مرجع الضّمائر المتّصلة، بالأفعال الواردة في السّياق:

نلمح في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ﴾ ... ﴿وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ أنَّ مَرْجِع الضَّمائر المُتَّصلة في هذه الأفعال، يعود على الأُمَم السّابقة، كَعادٍ وثَمود، وقَوْم لوطٍ، وأمْثالهم الَّذينَ شاهَدَ العَرَبُ آثارَهُمْ، وقد كانت الضّمائر المتّصلة موجّهة نحو سيرهم في الأكوان، وممارساتهم في العُمران، واستقبالهم الكنود لرسالات البلاغ عبر الزّمان، وقد شملت هذه الأفعال قرونًا من الصّراع بين الحقّ والباطل، وأزمنة من المغالبة الّتي جسّدَتْها مضامينُ القصص القرآنيّ، في الصّدام بين الدُّعاة والغُلاة، والّتي بقيت وقائعها عبرة لمن كان له قلب أو ألقى السّمع وهو شهيد، ولكنّهم لم يستثمروها، واختاروا الضّلال، وصمّوا آذانهم عن الهدى.

إعادةُ التّاريخ نفسه بين الغابر والحاضر

فائدة عطف ﴿فَيَنظُرُواْ﴾ على جملة ﴿يَسِيرُواْ﴾:

جاءت جملة: ﴿فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾، معطوفةً على جملة: ﴿يَسِيرُواْ﴾ فهي داخلة في حُكْم الاستفهام، ويمكن أن تكون الجملة منصوبة بإضمار (أنْ)، على أنَّه جواب النَّفي، والتَّقدير: قَدْ شاهَدوا رُسُلَهُمْ.

الجملة المعطوفة داخلة في حُكْم الاستفهام

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 56.

معنى الفاء في قوله: ﴿فَيَنظُرُواْ﴾:

السببية والتعقيب ذو أثر في الدّلالة على الإبانة

الفاءُ في ﴿فَيَنظُرُواْ﴾، لِلْعَطْفِ عَلى ﴿يَسِيرُواْ﴾ داخِلٌ تَحْتَ ما تَضَمَّنَهُ الاسْتِفْهامُ مِنَ التَّقْرِيعِ والتَّوْبِيخِ، وهي للسَّبَبِيَّة؛ أي تَسَبُّب النَّظَر عن السَّير، أو لِتَعقيب النَّظَر على السَّير، والمَعْنى: أنَّهم قَدْ ساروا وشاهَدوا[1].

دلالة النَّظر المراد في جمله: ﴿فَيَنظُرُواْ﴾:

النَّظَرُ هُنا إمّا أن يكون المراد به التَّأمُّل والتَّدَبُّر، وأخْذ العِبرة، وعليه ففي اللَّفظ استعارة تصريحيَّة، وسِرُّها الوقوف على ما حَلَّ بالأُمَم السّابقة الغابِرة المُتَجَبِّرة، مِن عِقاب الله تعالى حتَّى ولَكأنَّهم يَنْظرون إلى مصارعهم، وهي تقع أمامهم نَظَر العين، والغاية تعميق الفِكْر، والتَّأمُّل فيما حَلَّ بِهِم؛ لِكون ذلك رادعًا لَهُم، وزاجرًا عن تكذيب نَبيِّهم ﷺ، وحافزًا على الإذعان والإيمان والقبول بالدَّعوة إلى التَّوحيد والإسلام[2]، فالمطلوب السّير، سَيْرَ اعْتِبارٍ وتَأمُّلٍ وادِّكارٍ، مِن أيِّ جِهَةٍ أرادوا، "وفيهِ إشارَةٌ إلى أنَّهم واقِفونَ عِنْدَ النَّظَرِ في ظاهِرِ المُلْكِ بِأبْصارِهِمْ، قاصِرونَ عَنِ الاعْتِبارِ في باطِنِ المَلَكوتِ بِأفْكارِهِمْ، وفيهِ هَزٌّ لَهم إلى امْتِطاءِ هَذِهِ الدَّرَجَةِ العَلِيَّةِ، بِهَذِهِ العِبارَةِ الجَلِيَّةِ ﴿فَيَنظُرُواْ﴾"[3]، وإمّا أن يكون النَّظَرُ مستعمَلًا في معناه الحقيقيِّ، ويكون المراد به نَظَرَ العَيْنِ؛ لِأنَّ قُرَيْشًا كانوا يَمُرّونَ في أسْفارِهِم إلى الشّامِ عَلى ديارِ ثَمودَ وقَوْمِ لوطٍ، وفي أسْفارِهِمْ إلى اليَمَنِ عَلى ديارِ عادٍ[4].

النَّظَر في الآية بين الحقيقة والمجاز، لا مغالاة فيه ولا انحياز

بلاغة الاستفهام بـ﴿كَيْفَ﴾ وغَرَضُه:

الاستفهامُ بلفظ ﴿كَيْفَ﴾، في قوله: ﴿فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ﴾

تعاضُد دلالة البَصيرة، مع النّظر بالعين الباصرة

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 15/ 107، والقنوجي، فَتْح البيان: 3/ 374.
(2) المطْعَني، التَّفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم: 3/ 245.
(3) البِقاعي، نَظْم الدُّرَر: 15/ 50.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 56.

للتَّعجيب مِمّا حَلَّ بتلك الأُمَم السّابقة الظّالمة، وهو في مَحَلِّ نَصْبٍ مفعول به للفعل ﴿فَيَنظُرُواْ﴾، أي: يَنْظروا كيفيَّة عِقاب اللّه لَهُم[1]، أي حالَةُ آخِرِ أمْرِهِم، مِن خَرابِ بِلادِهِم، وانْقِطاعِ أعْقابِهِم، فتآزَرَت الدِّلالتان: دلالة التَّفَكُّرِ الَّتي في قَوْلِهِ ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ﴾، مَعَ دَلالَةِ الحِسِّ بِقَوْلِهِ ﴿فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمۚ﴾"[2].

لطيفةُ تذكير الفعل ﴿كَانَ﴾ مع ﴿عَٰقِبَةُ﴾:

تَـذْكـيرُ الـعَـمَـلِ يُشيرُ إلى عِظَمِ الأمْرِ، ومناسبة التّأنيث المجازيّ

العاقِبَةُ: آخِرُ الأمْرِ مِنَ الخَيْرِ والشَّرِّ، بِخِلافِ العُقْبى فهي لِلْخَيْرِ خاصَّةً، إلّا في مَقامِ المُشاكَلَةِ[3]، وذُكِّرَ الفعل ﴿كَانَ﴾ مع ﴿عَٰقِبَةُ﴾؛ لأنَّ التَّأنيث مجازيٌّ، وسِرُّه البَلاغيّ هو أنَّه لَمّا كانَ ما حَلَّ بأسلافهم مِن المُكَذِّبين أمْرًا عَظيمًا، نَبَّهَ على عِظَمِه، بِأنَّهُ أهْلٌ لِأنْ يُسْألَ عَنْهُ، فقالَ: ﴿كَيْفَ كَانَ﴾، أيْ كَوْنًا لا قُدْرَةَ على الانْفِكاكِ عَنْهُ، وتَذْكيرُ العَمَلِ يُشيرُ إلى عِظَمِ الأمْرِ[4]، وأوقَعَ فِعلَ ﴿كَانَ﴾ الماضي في مَوقِعِ المُضارِعِ؛ للتَّنبيهِ على تَحقيقِ وُقوعِه، مِثْلُ قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: 1]؛ إتمامًا للنِّذارة[5].

نُكْتة التّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

اخـتـيـار الـلّـفـظ الـدّالّ عن المراد، أمـكـن في إبـراز البيان المستفاد

أوثر لفظ الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمۚ﴾، الدّال على الجمع العاقل؛ للتّعبير عن المخبَرِ عنهُم بالموصولِ وصِلَتِه، وهو هنا مُشْعِرٌ بعِلَّةِ ثبوتِ الخبَرِ للمُخْبَرِ عنهم، فهم هنا السّابقون من الأقوام الخوالي، من الأمم المُهْلَكةِ كعادٍ وثمودَ، وغيرهم من كلّ شعب منكر كنود، وقد خصّ منهم بالموصوليّة ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمۚ﴾، باعتبار ما كان لهم من قوّة،

(1) المطْعَني، التّفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم: 3/ 245.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 56.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 56.
(4) البِقاعي، نَظْم الدُّرَر: 15/ 50.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 56.

وما شهدته حضارتهم من عزَّة، واستغنى عن تسميّتهم المحدّدة، وآثر التّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾؛ بغية أن يشمل كلّ أمّة في كلّ زمان ومكان، ممّن تمكّنوا بالعُمران، وآثروا الكُفران.

سِرُّ إثبات ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾:

الدّلالة على قُرْب الزّمان، موحية بفائدة المثال وواقعيّته

ورد حَرْفُ الجَرِّ في قوله: ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾؛ للدِّلالة على قُرْب الزَّمان، وبيان هذا أنَّه لمّا كانَ حالُ مَن قَرُبَ مِن زَمانِ الإنْسانِ أوْعَظَ لَهُ،؛ لذا أُثْبِت الجارّ، فقالَ: ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ في إهْلاكِ العاصي وإنْجاءِ الطّائِعِ[1]، ولذلك نماذج سلفوا من قبلهم، من طوائف الكفّار، ومن الأمم العتاة الكبار، الّذين أُهْلِكوا بسبب كفرهم بالله، وجحودهم للحقّ، وتكذيبهم للرّسل الكرام، ﷺ[2].

نُكْتة فصْل ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ﴾ عمّا قبلها:

فَصْل السّياق لِكمال الاتّصال، من فصيح البيان

جملة ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾، إمّا تفسيريَّة لا مَحَلَّ لَها مِن الإعراب، وإمّا بَدَليَّة عَمّا قَبْلَها؛ لأنَّها بيان لَها وتفصيل، حيث شَرَعت في وصْف أحوال المُهْلَكين، فالفَصْل لكمال الاتِّصال، وعُبِّرَ بالكَون الماضي؛ للدِّلالة على بُلوغ الأُمَم السّابقة لغايَةِ المُكْنَة في الأرض شِدَّة، وعِمارةً لَها وزرعًا وحَرْثًا وشَقًّا.

معنى الواو في جملة ﴿وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ﴾:

تثوير الأرض بالزّراعة، مُفْضٍ إلى التّعمير والانتفاع

قوله تعالى: ﴿وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾، هذه جملة معطوفة على قوله تعالى: ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾، ومعنى أثاروا الأرض: أي استثمروها بزراعتها وحَرْثها، وتقليبها وسَقْيِها، وهو أمرٌ قرّره الله في وضع الأرض للأنام، وتسخيرها للبشر، وذلك واضح في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ١٥﴾ [الملك: 15]، وقوله: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا

(1) البِقاعي، نَظْم الدُّرَر: 15/ 50.
(2) القِنَّوجي، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 10/ 230.

تَحۡرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ [الواقعة: 63 - 64]، وأحسن مظهر للقوّة والعمارة، إنّما هو الإنتاج بمُكْنة وغزارة.

غرضُ التَّهَكُّم في: ﴿وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ﴾:

يفيدُ قوله: ﴿وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾، تأكيدَ الذَّم بما يُشْبِه المَدْح، وفيه تَهَكُّمٌ، وسُخْرية بمُشركي مَكَّة، ففي إسناد العِمارة لَهُم وهُمْ أهْلُ وادٍ غير ذي زَرْع تَهَكُّمٌ بِهِم، وفي نَسَب القوَّة إليهم في قوله: ﴿أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةً﴾ حيثُ شاركَهَم مع عادٍ وثمود في القوَّة وهُمْ ضِعاف القوى؛ تَهكُّمٌ بِهِم أيضًا، فأفعل التَّفضيل يقتضي المُشاركة في الفعل مع أنَّه لامناسبة بينهم، فمشركو مكَّة أضعف حالًا فيها، ويتَّضح التَّهَكُّم إذا اعْتُبِرَت الصّيغة مسلوبةَ التَّفضيل، ويشير كلام الزَّمخشريِّ إلى هذا المعنى حيث يقول: "يَعْني أولئك المُدَمَّرون أكْثَرَ مِمّا عَمَروها مِن عِمارة أهل مكَّة، وأهل مكَّة أهلٌ ما لَهَم إثارة الأرض أصلًا، ولا عمارة لها رَأْسًا؛ فما هو إلا تَهَكُّمٌ بِهِم، وبِضَعْف حالهم في دنياهم؛ لأنّ معظم ما يَستظْهِر به أهل الدُّنيا، ويَتَباهون به أمر الدَّهْقَنة – الزِّراعة – وهم أيضًا ضِعاف القوى، فقوله: ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةً﴾، أي عاد وثمود وأضرابهم، من هذا القبيل، كقوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ﴾، وإن كان هذا أبلغ؛ لأنَّه خالق القوى والقُدَر، ولا يُتَصَوَّر التّفاوت بَيْن الله تعالى وبَيْن البَشَر، في القوَّة، فما كان تدميره إيّاهم ظُلْمًا لهم؛ لأنّ حاله منافية للظُّلْم، ولكِنَّهم ظَلَموا أنفسهم حيث عَمِلوا ما أوْجب تَدْميرَهُم"[1].

لا يُتَصَوَّر التّفاوت بَيْن الله وبَيْن البَشَر، إذْ شتّان بين الخالق والمخلوق

نكتة التعبير بالعِمارة:

قال تعالى: ﴿وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾، ولم يقُلْ: (وأثاروا الأرض أكثَرَ ممّا أثاروها)؛ لِكَونِ قُرَيشٍ لم تكُنْ لهم إثارةٌ في

خطاب قريش للعبرة بالنّظر، في مصير السّابقين إلى الإثارة والعمارة

(1) الزَّمخشريّ، الكَشّاف: 4/ 566، والطّيبي، فتوح الغيب: 12/ 216، وأبو حَيّان، البحر المحيط: 7/ 160، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 15/ 108.

الأرضِ؛ إذ كانوا بِوادٍ غيرِ ذي زَرعٍ، وإنَّما كان لهم عِمارةٌ في الأرضِ من غرسٍ قليلٍ، وبِناءٍ وتفجيرٍ، ولكنَّه يَتضاءلُ أمامَ عمارةِ الأُمَمِ السّالِفةِ مِن عادٍ وثَمودَ[1]، لذلك أشاد بالإثارة للأرض والعمارة، عند الأمم الخالية، أكثر ممّا كان يشهد عند أهل مكّة، وقد نقل القرآن والتّاريخ عن السّابقين، أنّهم عالجوا الأرض، و"قلّبوها للزّراعة، واستخراج المعادن وغيرهما، ممّا كانوا أرقى فيه من أهل مكّة، وعَمَروها أكْثَرَ مِمّا عَمَروها، أي بالأبنية المشيدة، والصّناعات الفريدة، ووفرة العَدَد والعُدَد، وتنظيم الجيوش، والتّزيّن بزخارف أعجبوا بها، واستطالوا بأبّهتها[2].

دلالة تقديم الجارّ، في ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾:

التّعجيل بالتّهكّم، من بيان القرآن المعبّر عن الحال والمآل

و(مِنْ): حَرْف جَرٍّ، للدِّلالة على أخْذ شيءٍ مِنْ شيءٍ بمعنى (بَعْض)، وهي هُنا بيانيَّة، وقُدِّم الجارُّ والمجرور؛ لأهمّيَّته، وذلك للتَّعجيل بالتَّهكُّم منهم والسَّخرية بهم، وتنبيههم إلى معرفة قَدْرِهم، في ميزان الحضارة والعُمران، وأنّ من كانوا أشدّ منهم قوّة، حينما كذّبوا بالحقّ لمّا جاءهم، لم تُغْنِ عنهم قوّتهم شيئًا، ولم يبقَ منهم إلّا أممٌ بائدة، وأطلالٌ شاهدة، ومنازلُ مُقفِرة، ولعنةٌ من اللّه ظاهرة، وهذا الجزاء العاجل المذكور، ليس إلّا نموذج لما ينتظرهم من عذاب مقيم، في يوم النّشور، حيث سوء العاقبة وسوء المصير.

سِرُّ إسقاط ضمير الفَصْل مِن السّياق:

لا مدعاة للضّمير، حيث لا ادّعاء لِلعُلوّ على الفرس والرّوم

قوله: ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾، فيه أُسْقِط ضمير الفَصْل، حيث لم يُقَلْ: (كانوا هُم أشَدَّ مِنْهُمْ قوّةً)؛ لِأنَّ هَذا السّياقَ لا يَظْهَرُ فيهِ ادِّعاءُ العَرَبِ لِعُلوِّهِمْ عَلى فارِسَ ولا الرّوم، وهذا ما فصَّله البِقاعيّ، بقوله: "ولَمّا كانَ السّياقُ لِلظُّهورِ والغَلَبَةِ، الَّتي إنَّما مَدارُها عَلى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 58.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 8/ 7.

الشِّدَّةِ المُقْتَضيَةِ لِلثَّبات، لا الكَثْرَةِ العاريَةِ عَنْها، أعْرَضَ عَنْها، وقالَ مُسْقِطًا ضَميرَ الفَصْلِ، لِأنَّ هَذا السّياقَ لا يَظْهَرُ فيهِ ادِّعاءُ العَرَبِ لِعُلوِّهِمْ عَلى فارِسَ ولا الرّوم، ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ﴾: أيْ مِنَ العَرَبِ ﴿قُوَّةً﴾، أيْ في أبْدانِهِمْ وعُقولِهِم"[1].

نكتة تنكير لفظ ﴿قُوَّةً﴾:

وقعت كلمة ﴿قُوَّةً﴾ هنا في قوله: ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ تمييزًا نكرة، والقوَّةُ كَما عَرَّفها ابن عاشور: "حالَةٌ بِها يُقاوِمُ صاحِبُها ما يوجِبُ انْخِرامَهُ، فمِن ذَلِكَ قوَّةُ البَدَنِ، وقوَّةُ الخَشَبِ، وتُسْتَعارُ القوَّةُ لِما بِهِ تُدْفَعُ العادِيَةُ، وتَسْتَقيمُ الحالَةُ؛ فهي مَجْموعُ صِفاتٍ يَكونُ بِها بَقاءُ الشَّيْءِ عَلى أكْمَلِ أحْوالِهِ، كَما في قَوْلِهِ: ﴿نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ﴾ [النمل: 33]، وحالَةُ مُشْرِكي قُرَيْشٍ لا تُداني أحْوالَ تِلْكَ الأُمَمِ في القوَّةِ، وناهيكَ بِعادٍ، فقَدْ كانوا مَضْرِبَ الأمْثالِ في القوَّةِ، في سائِرِ أُمورِهِمْ"[2].

التَّفخيم والتَّعظيم، ملمح من البيان المفيد

سِرُّ إيثار التَّعبير بالمجيء على الإتيان:

عبَّر بالمجيء في قوله: ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾؛ لبيان أنَّ مجيء الرُّسُل مَجيءٌ ذو شَأْن وأهَمّيَّة؛ لاصطفاء الله لَهُم، وتمييزهم عن غيرهم، مِن سائر عباده؛ لذا صار ذلك بِمَنزلة الصُّعوبة في الحركة، وهذا ما يتوافق مع المدلول اللُّغويِّ للكلمة، وجميع شواهد مجيء الرُّسُل واضحة في دلالتها، على خَطَر الرِّسالات السَّماويَّة وأهمّيتها، وعظيم غايتها، وأثرها في حياة البَشريَّة، وإخراجها مِن الظُّلمات إلى النّور، ومِن عبادة الأوثان إلى عبادة الواحد الدَّيان، فهُم قد جاؤوا لإنذار أقوامهم، والدَّعوة إلى التَّوحيد، ولإبلاغهم الحِكْمة البالغة، والآيات الباهرة، والحقّ والصِّدق الّذي أُنْزِل عليهم، ومجيءٌ كَهذا ليس بالأمْر الهَيِّن السَّهْل، وإنَّما له مكانته

مجيء الرُّسُل مَجيء ذو شَأْن وأهَمّيَّة؛ لاصطفاء الله لَهُم

(1) البِقاعيّ، نَظْم الدُّرَر: 15/ 51.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 57.

وشأنه وخَطَره، ومِمّا يَدُلُّ على مكانة مجيئهم وخَطَره، ما كان مِن رَدَّة أفعال أقوامهم، عند إرسالهم؛ لِما فيه مِن صعوبة ترجع إلى تغيير العادات، وإزالة مظاهر الوَثنيَّة والشِّرْك والانحراف فيهم؛ لذلك عاندوا، وكَرِهوا أن يُذْعِنوا إليهم، ويؤْمِنوا بِهِم[1].

علةُ إسناد فعل المجيء إلى ضمير الجمع:

إضافة الفعل للمفعول من فصيح البيان المقول

الإضافة في ﴿وَجَآءَتْهُمْ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ مِن إضافة الفعل للمفعول لا إلى الفاعل، والبَيِّنات كِنايةٌ عن دلائل التَّوحيد والبَعْث، وإسناد الفعل (جاء) إلى ضمير المُرْسَل إليهم مِن الأُمَم السّابقة، مَع إضافة الرُّسُل إلى الضَّمير نَفْسه؛ لِتَحْقيق بَعْث الله الرُّسُلَ فيهم، وإقامة الحُجَّة لله تعالى عليهم[2].

معنى (الفاء) في ثنايا السّياق:

الله عدلٌ لا يتأتّى منه ظلم؛ لكونه حرّم الظّلم على نفسه

الفاء في: ﴿فَمَا﴾ من قوله: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ تَفريعٌ لِكلام محذوف تقديره: (جاءتهم رُسُلُهم بالمُعْجزات القاهرات، والآيات الباهرات، فكَذَّبوا بِها واستهزؤوا، فاستأصلهم استئصالًا)، والمعنى: "وجاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ، أي: الآيات الواضحات على حقيقة ما يدعونهم إليه، فما كانَ اللّهُ لِيَظْلِمَهُمْ، أي فكذّبوهم فأهلكهم، فما كان الله لِيُهلِكَهم من غير جُرْمٍ منهم، ولكِنْ كانوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمونَ"[3].

دلالة (اللّام) في ثنايا السّياق:

الكون المنفيّ دَلَّ على استمرار النَّفي، لا على نَفْي الاستمرار

اللّام في ﴿لِيَظْلِمَهُمْ﴾ صِلة خبر كان، أوْ مُتَعَلِّق بمحذوف تقديره: (فما كان الله مُريدًا لأنْ يَظْلِمهم)، والكَون المَنْفيّ ﴿فَمَا كَانَ﴾ دَلَّ على استمرار النَّفي لا نَفْي الاستمرار، أي استمرار نَفْي ظُلْم الله تعالى لهؤلاء المُهلَكين؛ وإنَّما أهلكهم بِسَبَب استمرار تكذيبهم

(1) حمدان، الإتيان والمَجيء فِقْه دلالتهما، واستعمالهما في القرآن الكريم، ص: 43 - 44.
(2) المطعني، التّفسير البلاغيّ للقرآن الحكيم: 3/ 246.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 8/ 7.

رُسُلَهم، وعِنادهم وكُفرِهم، فأخذهم أخْذَ عزيزٍ مُقتدرٍ، ولَمْ يُغْنِ عَنْهم مِن اللّه شيء[1].

بلاغة التَّفريع في السّياق المحكم الأنيق:

استدلال عَقْليٌّ وحِسّيٌّ مراد لإبراز البيان المستفاد

يُلحظ في السّياق تَفريعُ جملة: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾، عَلى قَوْلِه: ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، وهو إيجازٌ بالحَذْف بَديعٌ؛ لِأنَّ مَجيءَ الرُّسُلِ بالبَيِّناتِ يَقْتَضي تَصْديقًا وتَكْذيبًا، فلَمّا فرَّعَ عَلَيْهِ أنَّ الأقوامَ ظَلَموا أنْفُسَهم، عُلِمَ أنَّهم كَذَّبوا الرُّسُلَ، وأنَّ اللّهَ جازاهم عَلى تَكْذيبِهِمْ رُسُلَهُ، بِأنْ عاقَبَهم عِقابًا، لَوْ كانَ لِغَيْرِ جُرْمٍ لَشابَهَ الظُّلْمَ، فجُعِلَ مِن مَجْموعِ نَفْيِ ظُلْمِ اللّهِ إيّاهم، ومِن إثْباتِ ظُلْمِهِمْ أنْفُسَهم، مَعْرِفَةُ أنَّهم كَذَّبوا الرُّسُلَ وعانَدوهم، وحَلَّ بِهِمْ ما هو مَعْلومٌ مِن مُشاهَدَةِ ديارِهِمْ، وتَناقُلِ أخْبارِهِم[2]، وفي هذا السّياق، فقد طَوَتِ الفاءُ وراءها محذوفًا، في قوله: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ تقديره: "فَلَمْ يؤمنوا فأُهلِكوا، فما ظَلَمهم اللّه بتعذيبهم مِن غير ذَنْب"[3].

معنى الواو في قوله: ﴿وَلَٰكِن﴾:

من ظلم نفسه بالكفران، استحقّ العذاب والهوان

جاءت الواو في ﴿وَلَٰكِن﴾ من قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ عاطفة، والاسْتِدْراكُ ناشِئٌ عَلى ما يَقْتَضيهُ نَفْيُ ظُلْمِ اللّهِ إيّاهم، مِن أنَّهم عومِلوا مُعامَلَةً سَيِّئَةً لَوْ لَمْ يَسْتَحِقّوها لَكانَتْ مُعامَلَةَ ظُلْمٍ[4]، ولكنّ اللّه لايظلم أحدًا، وفي ذلك تنبيهٌ لأهل مكّة، بأنّ العذاب لو حلّ بهم، لكان مستحقّا لا ظُلمَ فيه؛ لأنّهم يشابهون من سبقهم في الكفر، ومحاربة اللّه ورسوله، وهم بذلك ظالمون لأنفسهم.

(1) القونويّ، حاشيّة على تفسير البيضاويّ: 15/ 108.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 58.
(3) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/ 531.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 58.

سِرُّ التَّعبير بِالكَوْن الماضي:

الدلالةُ على عَراقَتهم في الظُّلْم، وإصرارهم عليه

عبَّر بالكَون الماضي في قوله: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ﴾؛ للدِّلالة على عَراقتهم في الظُّلْم، "أيْ كَوْنًا هو في غايَةِ المُكْنَةِ بِغايَةِ جُهْدِهِمْ"[1]، وقد انصرم ذلك في الأزمنة الغابرة، وتجلّى واقعيًّا في تاريخ أولئك الأقوام، فتَناقَلَتْه الرّوايات، وخلَّدَتْه وقائع التّاريخ، وحَكَتْه كتبُ السّماء المنزلة على الرّسل، المبلِّغين لمراد الله من خلقه.

لطيفة التَّعبير بمضارع الظلم:

مَنْ تتابع ظلمه، تقرّر عذابه، وتأكّد عقابه

عُبِّرَ عَنْ ظُلْمِهِمْ أَنْفُسَهم بِصيغَةِ المُضارِعِ في قوله تعالى: ﴿كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾؛ لِلدَّلالَةِ عَلى إصرارهم على الظُّلْم، واستمرارهم عليه، وقد أمْهَلَهم الله بَعْد كفرهم وظلمهم، ولَم يُبادرهم بالعُقوبة لكنَّهم أصَرّوا على الطُّغيان والظُّلْم والعِصيان، حتَّى أخَذهم أخْذ عزيز مُقتَدر، كما يَدُلُّ عليه لَفْظ (عاقِبَة).

نَكْتة تقديم المفعول به على الفعل:

ظلم الآخر عجيب، ولكنّ ظلم النّفس أعجب

قوله: ﴿أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ فيه تَقْديمُ ﴿أَنفُسَهُمْ﴾، وهو مَفْعولُ ﴿يَظْلِمُونَ﴾ عَلى فِعْلِهِ؛ لِلاهْتِمامِ بِأَنْفُسِهِمْ في تَسْليطِ ظُلْمِهِمْ عَلَيْها، لِأَنَّهُ ظُلْمٌ يُتَعَجَّبُ مِنه! مَعَ ما فيهِ مِنَ الرِّعايَةِ عَلى الفاصِلَةِ، ولَيْسَ تَقْديمُ المَفْعولِ هُنا للقَصْر؛ لِأَنَّ القَصْر حاصِلٌ مِن مجموع جُمْلَتَيِ النَّفْيِ والإثْباتِ[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإتيان والمَجيء:

الإتيان ينقال للمجيء بالذّات وبالأمر وبالتّدبير، وبينهما عموم وخصوص

الإتيان: تدور مادَّة الإتيان حول اليُسْر والسُّهولة واللّين، فالمجيء من بُعْد، وبسهولة، يقال: أتى يأتي إتْيانًا، فهو آتٍ[3]، وكلُّ آتٍ قريبٌ،

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 15/ 52.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 59.
(3) الرّاغب، المفردات: (أتى).

ومنه قيل للسَّيل المارّ على وجهه: أتيّ وأتاويّ، وبه شُبّه الغريب، فقيل: أتاويّ، ويكون مرجع السُّهولة فيه إلى كون الحركة صادرة عن طواعية ورغبة، أو لوقوع الفعل حال انقياد وطاعة، أو في معرض بيان التَّفضُّل به دون وجوب أو إلزام، أو في مقام بيان سهولته، لقدرة الفاعل عليه، أو لأنَّ الإتيان قد فارقه ما يجعله صعبًا[1]، والإتيان يقال للمجيء بالذّات وبالأمر وبالتّدبير، ويقال في الخير وفي الشَّر، وفي الأعيان والأعراض، ومن شواهده قوله تعالى: ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ [الأنعام: 40]، وقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النّحل: 1]، وقوله: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ۝٦٠﴾ [طه: 60].

وأمّا المجيء: فيدلُّ أصل المادَّة على الغلبة والإلجاء، يقال: أجاءَهُ إلى الشَّيء، أي جاء به، وألجأه إليه، واضطرّه إليه، وفي المجيء معنى الحَبْس، وعدم النَّفاذ على الغاية؛ لذا اشتُقَّ من المادَّة الاسم (الجِنَّة)، وهو مجتَمَع الماء حول الحِصْن وغيره؛ لأنَّها تحبس الماء عنه فلا ينفذ إليه[2]، والمجيء يكون مِن أي جهة، ويستعمل في لغة العرب لازمًا، ومتعدّيًا[3]، وبين الإتيان والمجيء عموم وخصوص، فالإتيان أخصُّ مِن جِهَة كونه بسهولة، والمجيء أخَصُّ من جهة كونه دون سهولة، وبينهما عموم من حيث دلالتهما على مُطْلَق الحركة والانتقال، دون التَّقيُّد بسهولة، أو غيرها.

والإتيان قد يقال باعتبار القصد، وإن لم يكن منه الحصول، والمجيء يقال اعتبارًا بالحصول، ويقال: (جاء): في الأعيان والمعاني، ولِما مجيئه بذاته، أو بأمره، ولمن قصد مكانًا، أو عملًا، أو زمانًا[4]، ومن شواهده قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ [يس: 20] وقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ﴾ [هود: 77]، وقوله: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا﴾ [الزّمر: 59].

الشدّة والقوّة:

الشِّدَّة: يَدُلُّ الأصْل عَلَى قوَّةٍ في الشَّيْءِ[5]، وهي العَقْد القَويّ، يقال: شَدَدْتُ الشّيء:

(1) حمدان، الإتيان والمجيء - فقه دلالتهما واستعمالهما في القرآن الكريم، ص: 17.
(2) الرّاغب، المفردات: (جاء).
(3) أبو هلال العسكري، الفروق في اللُّغة، ص: 302.
(4) الرّاغب، المفردات: (جاء).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شدّ).

الشِّدة في الأصل قـوّة وصـلابـة، والقوّة قُدْرة على الفعل، وتمكّن منه

قَوَّيتُ عُقَدَه، قال الله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ [الإنسان: 28]، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾ [محمّد: 4]، والشِّدَّةُ تستعمل في العقد، وفي البدن، وفي قوى النَّفْس، وفي العَذاب، قال: ﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فاطر: 44]، وقال: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾ [النّجم: 5]، يعني: جبريل عليه السلام، وقال تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ [التّحريم: 6]، وقال عن اليهود: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ [الحشر: 14]، ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ۝٢٦﴾ [ق: 26][1]، وأمّا القوَّة: فيَدُلُّ أصْلُها عَلَى شِدَّةٍ وخِلافِ ضَعْفٍ[2]، والقوَّة تُستعمل تارةً في معنى القُدْرة، نحو: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: 63]، والفرق بين اللَّفظين: أن الشِّدة في الأصل، هي مبالغة في وصْف الشَّيء في صَلابة وليس هو من قبيل القدرة، ولهذا لا يقال لله شديد، والقوّة من قبيل القدرة.

(1) الرّاغب، المفردات: (شدّ).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قوي).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والأربعون،
سورة الرّوم من الآية 08 إلى سورة لقمان الآية 20
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والأربعون، سورة الرّوم من الآية 08 إلى سورة لقمان الآية 20
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 43 ، 816 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-94-5
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 43 : المجلد الثالث والأربعون، سورة الرّوم من الآية 08 إلى سورة لقمان الآية 20.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-94-5
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9381682 بتاريخ 2024/12/31م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»